

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الاتجاهات الحديثة في الإسلام

للأستاذ
محمد حجة الأثرى

المطبعة التاليفية - ومكتبتها

٢١ شارع الفتح بالردفنة - بيروت ٨٩٨٣٦٤

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الانتاجات الحديثة في الإسلام

للأستاذ

محمد حجة الأثرى

المطبعة السلفية - ومكنتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

- ٣ -

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

كَلِمَةٌ

بين يدي هذا السفر النفيس

الاتجاه الجماعي في الإسلام ، من صميم الإسلام ، بل هو الاسلام
إن الاسلام - في ذاته - دينُ جماعة ، يقوم على تحرّي السداد والمقاربة في
الحياة الدنيا ، وحياة الخلود

ولجاعات الاسلام قبلة واحدة يتمرنون على تحرّي السداد بتحرّيتهم السداد
في الاتجاه إليها ، آناء الليل وأطراف النهار

والمجتمع الاسلامي رسمت لاتجاهاته سنن عيّنت ، ودوّنت ، وجُرب العمل
بها مائتي سنة ، فكان نجاح التجربة معجزة من معجزات التاريخ الانساني .
وهذه السنن - في جملتها وتفصيلها - تأخذ بأيدي أفراد المسلمين وجماعاتهم ودولتهم
إلى البدء - في كل شيء - من أول الخط المستقيم ، وتحرّي الوصول إلى آخره
على الجادة ، وهم يدعون الله في كل يوم صرّات وصرّات : **اهدنا الصراط
المستقيم**

كانوا - أفراداً وجماعات ، رجالاً ونساء - يطلبون من ربهم ، في داخل
صلاتهم وخارجها - هذه الهداية إلى الصراط المستقيم ، بقلوبهم قبل ألسنتهم ،
وكانوا على بينة مما يطلبون ، ويتصوّرون معاني هذه الألفاظ الثلاثة كلما تحرّكت
بها ألسنتهم ، واستمرّ ذلك في البطون الثلاثة الأولى للإسلام ، وهي المدّة التي
انتشرت فيها دعوة « الصراط المستقيم » بسرعة الصوت من مآذن التوحيد في
قارّات الأرض التي كانت معروفة لذلك العهد ، فسعدت شعوب الأرض بالانضمام
إلى هذه الدعوة وأهلها من العرب الأولين ، واعتزّ المشاركة والمغازية بالولاء لهم ،
والإتقاء لقبائلهم ، فكان ذلك من أولئك وهؤلاء ولاء على الحق ، وتعاوناً مثاليًا

في سبيل الخير ، بل اندماجاً في العروبة وسنمها وانقياداً بالعربية وبيانها ، لا يعرف التاريخ نظيراً له في أمة أخرى

كانوا هم الناس ، يوم كانوا قائمين بذلك ، ومتعاونين عليه ، ومقتنعين بأن الطريق المستقيم أقرب الطرق ، وأقصرها وأيسرها ، الوصول إلى الهدف العام ، ولتحقيق الصالح الجزئية

ولما اختلطوا بالأمم ، واختلطت بهم الأمم ، فأخذت عنهم وأخذوا عنها ، اندس فيهم أبالسة فشلوا في تحطيم هذه الدعوة بالقوة ، فزعموا أنهم انضموا إليها ، وأنهم صاروا من حُجَّاتها ، فاخترعوا لأهلها شيئاً ومذاهب متشعبة في « بنيات الطريق » . وأنعموا من أنعموه منهم بأن « التخريم » فيها أقرب - في الوصول إلى الأهداف - من التزام الصراط المستقيم . وترتب على ذلك أن صار كثيرون من المسلمين يقولون لربهم في صلاتهم « اهدنا الصراط المستقيم » وهم غير مقتنعين في قلوبهم بأن « الصراط المستقيم » أسرع من « بنيات الطريق » في إبلاغهم أهدافهم وتحقيق مصالحهم . ويومئذ تفرق المسلمون شيئاً في الأصول قبل الفروع ، وتوغلوا في الطرق الصوفية وغير الصوفية ، وصار لمجموعهم لون آخر غير اللون الذي كان للجماعة الأولى التي فتح الله لها الفتوح ، وطوَّع لرسالتها قلوب الأمم ، ولقنها أسنتهم ، من زمن الصحابة إلى زمن التابعين والتابعين لهم بإحسان

هنالك استعجم الإسلام - كما يقول الشيخ محمد عبده - ونحو أول أهله من « أمة صدق » لأن للصدق من لوازم الصراط المستقيم ، إلى أمة ترى فلاح جماعاتها ، وبلوغ مقاصد أفرادها ، بالتفنن في الأساليب الملتوية ، والدعوة للطرق المتشعبة ، والتمسك بالشيوع المتضاربة

إن المسلمين قصة طويلة في حيرتهم بين « الصراط المستقيم » و « بنيات الطريق » تتفاوت عواقبها وعقوباتها سعة وضيقاً ، استمرت أكثر من ألف سنة

ودراسة هذه القصة ، ومراقبة تطورها على أيدي الأبالسة الذين حولوا المسلمين عن الطريق الأعظم إلى بنيات الطريق ، تقتضى كتابة تاريخ الإسلام وأهل من جديد ، ولا يقدر على ذلك إلا رجال أخلصوا النية ، ومخلصوا الحب لدعوة الإسلام الأولى كما هي ، وعاشوا مع عصور الإسلام كأنهم كانوا من مشهودها في جميع بيئاتها . وعلماءنا اليوم بين مشتغل بالعلوم الإسلامية في نطاق ضيق ، ولم يتسع وقته لتقوير بصيرته بما يتقلب على الأمم من أسباب النهوض والانحطاط ، وما يؤثر عليها من الدعايات والدسائس التي تغير مجرى تاريخها . وبين متعلم بالمناهج الأجنبية التي أبعدته عن فهم ماضى أمته وأصل دعوتها ، ودقائق سننها التي كوفت عليها من الله بالخلافة على الأرض ، ثم ما طرأ على ذلك من أسباب الضعف المدسوسة أو غير المدسوسة . فلم تحظ هذه الدراسة بالألمى الحضيف من هؤلاء أو أولئك . وإن بين هذين الصنفين صنفاً ثالثاً ارتفع عن مستوى الصنف الأول ، وآتاه الله بصيرة ومعرفة امتاز بهما على الصنف الثانى . وهؤلاء مع أنهم قلة قليلة صرفتهم مشاغل الحياة عن الاضطلاع بهذا الواجب

ومن خيرة من أعرفهم فى العالم الإسلامى اليوم من هذا الصنف الثالث ، أخى العلامة الجليل السيد محمد بهجة الأثرى ، فانه مجموعة رجال فى رجل ، أنشأ الله تحت جناح علامة العراق ، وأحد أفذاذ المسلمين من الطبقة التى نشأنا فى ظلها ، وهو السيد محمود شكرى الألوسى ، علم الأعلام الذين توارثوا حمل أمانات الملة بعلمهم ودينهم وأخلاقهم ، فكان السيد الأثرى أخص أبناء السيد الألوسى ، ثم كان له من مواهبه الممتازة ما مكن له فى علوم الشريعة ، وعلوم البيان ، والبصيرة فى سنن الاجتماع وال عمران ، ومعرفة أقدار الأعلام من السلف فيما شادوا وبنوا ، ومراقبة أعداء الدعوة الإسلامية فيما دسوا من ورائهم وقوضوا . وإنى أشكر الفرصة التى سنحت له فى استعراض هذا الموضوع بلسنة خاطفة هى وإن كانت فى نفسها شيئاً عظيماً ، غير أن إشرافها على أحداث بضعة عشر قرناً فى البناء والمدم

وأشبابهما ، تكاد تكون مقدمة لدراسة قد تخرج في عشرات المجلدات . والسيد الأثرى من مشاغل الحياة - وأقربها قيامه على أوقاف المسلمين في العراق قيام إحياء وتجديد - ما لا نطمع معه في الوقت الحاضر بتسكيفه هذا الجهد الأعظم ، لكننى أرجو أن يحاول التوسع فيما كتبه في هذه الرسالة النفيسة ، فيخرج لنا بعدها دراسة أوسع ، تفتح الطريق له بعد ذلك ، أو لمن يوفقه الله للخير من شبابنا ، حتى يكون بين أيدي الجيل الآتى صورة أصيلة صحيحة لصراط الإسلام المستقيم ، وإبنيات الطريق التى تاه فيها المسلمون ، ليعودوا منها إلى سبيلهم الأول ، متوجهين باستقامة وسداد إلى الهدف الأعظم ، فتعود لهم خلافة الله على الأرض

محب الدين محمد الخطيب

دار الفتح
بحزيرة الروضة ، تجاه القسطنطينية
بغداد

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الاتجاهات الحديثة في الاسلام

محاضرة دُعِيَ الأستاذ الأثرى إلى إلقائها

في صيف سنة ١٣٧٠ (١٩٥١)

في مؤتمر الدراسات العربية ، بالجامعة الأمريكية - في بيروت

رَفَعُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّحْمَنِي
(سَلَامُكَ الْبَرُّ الْبَرُّ الْبَرُّ)

الاتجاهات الحديثة في الإسلام

يواجه الإسلام في هذا العصر مجموعتين هائلتين من المشكلات العويصة
المقدمة : المشكلات القديمة التي تراكت عليه في عصوره الطوال ، وعملت على
تغيير صورته وتحويل وجهته عن مجاريها العالمية إلى أن تأخر أهله وعاد هو غريباً
بينهم غربته بين غيرهم ؛ والمشكلات الجديدة التي أحدثها له ، ولا يزال يحدثها
له ، هذا السلطان السيامي لدول أوربة في دياره ومحاولاته الكثيرة المتنوعة في
مكائنه لإفساد بقاءه ، وعزله وإقصائه عن واقع الحياة ، مخافة سلطانه واستعلائه

والبحث في وجهاته في هذا العصر يستلزم ، قبل تناوله ، رسم صورتين
موجزتين لهاتين المجموعتين من مشكلاته ، ترتيباً للتأنيج على المقدمات وربطاً
للمسببات بالأسباب . وبدون الاستئذاة بما ينبغي أن نضمنهما من حقائق ، لا نستطيع
أن نقدر خطورة التطورات المختلفة التي ظهرت في وجهات الإسلام اليوم

وإني لمضطر أن أعترف ، قبل الخوض في هذا الخضم المتلاطم عبابه ، بأنني
قد ظلمت نفسي أشنع الظلم حين أطلت إلى الرضا بتناول هذا المبحث العظيم في
محاضرة ، في ساعة عابرة من الزمان ، وهو يلف في حناياه أحداث أزمنة طوال
حافلة من قضايا التاريخ وغرائب الأطوار وألوان المنازع والعايات بما لن يستطيع
الإحاطة بها واستخلاص وجهاتها إلا معهد منظم يتوفر على دراستها

ولكن نبل الغاية التي دعيت إلى المشاركة فيها ، وتقدير الثقة التي أولانيها
علماء الجامعة الأجلاء القائمون بتدبير شؤون هذا المؤتمر الكريم ، قد رجحا عندي
على هضم نفسي وإثارة إقامتها هذا المأزق

وزاد في رجحانها على ذلك في ميزان التفضيل والإيثارة ، هذه الصورة الجلية
التي آرتسمت في خيالي من جمال النفوس ورجاحة العقول التي سأواجهها هنا ، ثم

ما قام في نفسى بعد ذلك : من الطمع في كرم شمائل السامعين وإدراكهم العميق ، وما يوحيه هذا وذاك اليهم من التقدير لطبيعة البحث وزمنه ، وما تقتضيه ضرورة الموقف من عذر المحاضر أو قبول عذره

* * *

ليس الاسلام مشكلات في نفسه عند من يتدارسونه ، ويتمقون عقيدته وتشريعه ونظامه في قرآنه والصحيح الثابت من سنن رسوله ، وفي ترجمتهما إلى أعمال وأخلاق ومطامح عُلما كما ترى في سير خلفائه وأبطاله وعلمائه ومفكره وساسته وقادته في عهوده الأولى خاصة

وإنما مشكلاته هي من خارج نفسه في القديم وفي الحديث

فأما مشكلاته من خارج نفسه في القديم ، فقد نشأت له من سلسلة الآفات والسكرارث والحملات العنيفة التي تعرض لها في تاريخه المديد ، وكان الباعث عليها عوامل شتى من العصبية والأحقاد وقفت له بالمرصاد ونزلت إلى ميدانه تصارعه وتغالبه ، لتقضى عليه ، أو لتحد من نشاطه السياسي ونفوذه العالمى ، وتقف بموجاته حيث تستطيع أن تقف بها من شرق الأرض وغربها ، في سلسلة طويلة من الصراع بينها وبينه تركت آثاراً سيئة في حياة المسلمين العامة أدت نتائجها الخطيرة إلى انتقال السلطان من أيديهم إلى أيدي خصومهم وتقلب هؤلاء على أوطانهم كما هو معروف

وفي الحق أن ما ترتب على هذا الصراع السافر من نتائج سياسية وعقلية وروحية واجتماعية ، بعد عصور طويلة من نشأة الإسلام ، ما كان ليسكون بجملة وتفصيله على هذا النحو لو سلم الإسلام من الآفات التي تناولته ونفذت إليه بوسائلها لكثيرة كما تنفذ الأمراض الخبيثة إلى الجسم الحى لتبيده

نفذت هذه الآفات إلى الإسلام بوسيلتين مفردتين في الظاهر متحالفتين في

الباطن ، وهما وسيلة السياسة ووسيلة الدين ، وطالما ظهرت الحركات السياسية متبرقة ببراقع الدين أو المذهب ، لتخفى وجهها ووجهتها وتنفذ إلى ما تشاء من مآربها تحت ستار اسمه وأنتم حال عقيدته

وبدأت الحركات الأولى بمحاولة قلب الدولة الإسلامية ، وهى فتية غضة لم يستقر بعد عودها ، ولم تنشب جذورها ، فشرعت بالانتماء بالخلفاء الراشدين ، وظهر ذلك أول ما ظهر فى المؤامرة اليهودية الجوسية التى نفذها « بابا شجاع ! » أى أبو لؤلؤة الفارسي ، فقتل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه قائماً بصلى فى الحراب فلما أخفقت فى تحقيق غايتها بهذه الوسيلة ، عمدت إلى إثارة الفتن الداخلية وتمزيق الوحدة الإسلامية بإنشاء الأحزاب السرية والعلنية ، والتعزب للأمر الكبير فى الإسلام ، ونشر فكرة الحق الإلهى فى الدولة ، وإبطال الشورى . فنشب الصراع على الخلافة ، واستتبع ذلك انتقال الحكم من يد إلى يد بعوامل العصبية القبلية والمذهبية . وبذلك دخل أول الوهن على الوحدة الإسلامية ، وما زال يزداد والوحدة تتجزأ حتى آفست المملكة الإسلامية بين ملوك الطوائف ، وظهرت حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية فى أحشاء البلاد ، وهم يعيشون فى الإسلام وفى الدولة ويهزؤون بالمملكة هزاً بالغيلة والفتك بالخلفاء والملوك والعلماء ، إلى أن آكتسح المغول الشرق الإسلامى

وكان أخطر ما قامت به هذه الحركات فى توجيهاتها الخفية ، هو العمل على تحويل توجيهات الإسلام الروحية وتشريعاته ونزعاته عن مجاريها العالمية تحويلاً تنتهى به إلى إضعافه وإماتة حيويته ، ليكن لها من إحياء عصبيةاتها القديمة ، وإعادة سلطانها المذهب الذى تحن إليه ، وشفاء صدرها من الإسلام

فعمدت - أول ما عمدت - إلى الأصل الذى عليه يقوم بناء الإسلام ، وبه يتحقق وجوده ، ومنه تنفرع وجهاته فى العقيدة والشرعية والدولة والحياة . وهو

التوحيد الخالص . فارادته أن يكون شركاً خالصاً من نوع شركها القديم ، ووثنية حقيرة من جنس وثنياتها الأولى

وتفرع من سعيها في إفساد هذا الأصل الأعظم في الإسلام ، ونجاحها فيه نجاحاً كبيراً على مر الأيام ، سعيها في تشويه حقائق معظم الأمور التي تترتب عليه ، وتغيير صورها بتعريف وجهاتها والابتعاد بمقاصدها ونزعاتها عن مفاهيمها الحقيقية

وكان من وسائلها الكبرى إلى ذلك ، الوضع ، وتمثل التأويل لنصوص الكتاب والسنة ، وجعل ظواهر وبواطن القرآن وأحكامه ، وإضافة البدع والمخادعات إلى الدين والعبادات ، وإشباع الأذهان بالخرافات والقصص والأساطير الاسرائيلية ، والترويج لضروب من الآراء الباطلة والنوازع الضارة ، ولا سيما نوازع التفرق التي لم يُبعث الإسلام إلا لاستئصال مناشئها ، وإنقاذ العالم الإنساني من شرورها وآثامها ، بجعل الدين كله لله وحده لا شريك له في وحدانيته ولا تد له ولا منازع في سلطانه ، ولا سبيل لأحد من خلقه على خلقه سواه

وما زالت تدأب في ذلك ونحوه حتى استطاعت أن تُنحيل الإسلام ، على تراخي الأيام ، أسماء على غير مسماه ، وحات جماهير المسلمين على أن يألفوا رويداً رويداً صورة له يتنكر لها الإسلام الصحيح أشد التنكر ، ومفاهيم له فاسدة تخالفها ظواهر أصوله ونصوصه أشد المخالفة ، حتى عاد كثير مما كان معروفاً عند أوائلهم منكراً لديهم ، وكثير مما كان منكراً عند أوائلهم معروفاً عند هؤلاء

ولا غرابة في أن ينتهي الأمر بالإسلام إلى هذه الغاية ، بعد أن نعلم نتائج حركات هؤلاء في الداخل من جهة ، وآثار صراع الإسلام وراء حدود بلاده وفي قلبها من جهة أخرى ، في إضعاف الأمة الإسلامية ، وفشو الآفات الاجتماعية بين المسلمين

ومن أخطر هذه النتائج :

انتقالُ السلطان ، بذهاب الأجيال الأولى من الصرحاء الخمس المنتهين
بروح الرسالة ومطامحها العليا ، إلى أيدي الموالى والمجنّاء من رواسب الأمم الذين
طواهم الإسلام في عبايه ، وآتجلوه آتجالاً ظاهرياً ، وبقيت تعمل في صدورهم
الإحنة عليه والبغضاء له

ومنها : فشو الجهل ، والامية ، والاستعجاب

ومنها : انتهاء أزمة التوجيه الروحي والفكري ، بتأثير هذين العاملين ،
إلى التصوفة وأشباه الفقهاء . وقد نشأ هؤلاء في ظلال هذا الفساد ، وورثوا تلك
الصورة المشوّهة للإسلام كما صاغها أعداؤه ، ولم يكن لهم من الذكاء وحرية
الرأى وسعة العلم ما يعينهم على التحقيق والتحريض ، فآقتنعوا بصدق الصورة التي
نُقلت لهم عن الإسلام ، وألقوها منذ نعومة أظفارهم ، وشبّوا عليها وشابوا ،
وزادوها فساداً بجمودهم وفساد تخيلاتهم وآبتعادهم عن مصادر الإسلام الأولى
ورجوعهم في كسب معارفهم الدينية إلى كتب من كتب ذلك الرعيل ، وهي
كتب مذهبية بحجة أملاها التعصب الخالص ، فلم تكن في الدين بذات روح ،
ولا في الدنيا بذات طموح ، وشغل الناس بالجدل المذهبي ومقالات أهل النحل
والملل ، ومذاهب الروح وفلسفة الإشراف ، ومسائل الاتحاد والحلول ووحدة
الوجود ، فحجب ذلك عنهم دينهم ، ولم ينفعهم في دنياهم شيئاً . وأثرت الطرق
الصوفية في الأفكار تأثيراً سيئاً ، وكان من هذه الطرق ما يصطنع نظام الدرجات
للتصاعدة في المذاهب السرية ، ومنها ما يصطنع الدعوة إلى الزهد والآنقطاع بزعمهم
إلى الله ، ويرغب الجاهل في الفقر والمسكنة ، ويستكثر ، بمعاونة الطبقات الحاكمة ،
من الرُبط والتسكيات والزوايا ، فيقصدها المتبطلون من كل صوب ، ليستقوا على
الفتات من صدقات الحكّام الأغنياء ، ثم ليجاروا بالدعاء لهم أن يطيل أعمارهم
بأعيط الأرض ورافع السماء !

وقد كان سلطان طوائف المتصوفين ، في اليهود الأخيرة خاصة ، أقوى سلطان على عقول الجماهير ، وكان مسالكهم الوضيع يجرى على هوى الطبقات الحاكمة في حجب الأبصار عن ترفهم وباطلهم وتعسفهم ، فوطد المظالم وللأستبداد ، ووقف في وجه الإصلاح والمصلحين ، كما حلل طاقة الأمة ، وقعد بقواها عن السعى ، وبعمورها عن الابتكار ، وبثرائها عن الاستثمار . واسنانود أن نتحدث عن آثارها في تشويه الأخلاق ، وإفساد المعاملات ، وتزوير الدين ، وإحالة العبادة والتقوى فيه إلى رقص ومُسكأ وتصدية ورياء ، وظاهر مزورة ، خشية أن لا تنتهى منها ، ونحن نريد الاقتضاب

وبهذا الذى ذكرنا وغيره مما لم نذكر ، بلغ المسلمون غاية التأخر فى الدين والدنيا ، وعرضوا أنفسهم للعقوبة التى يكتبها الله على المنحرفين عن هدايته ، إذ أنقطع سندهم بالروح الواعى الذى كان يثير أسلافهم إلى العظام ، كما انقطع سندهم بالعلوم العمالية التى تسخر للأمة قوى الطبيعة ، وتسخرها لمصلحتها وبقائها وخلودها ، فكان أنقطع سندهم بهذين الأمرين وأنصرفهم إلى ما وصفناه من الشؤون مدعاة ضعفهم المعنوى والمادى ، وكان ضعفهم المعنوى والمادى علة سقوطهم

على أننا ، وقد انتهينا فى رسم هذه الصورة للحياة الإسلامية المتأخرة إلى هذه الغاية ، نرى من الحق علينا ، بل من مستلزمات بحثنا فى وجهات الإسلام الحديثة ، أن نكشف عن حقيقتين تاريخيتين لا خفاء بهما على من يتقصو التاريخ وينفضون أحداثه ، نعتقد أنهما أمسكتا العالم الإسلامى أن ينهار ، والإسلام أن يزول ، من أية صدمة من الصدمات التى قرعته . فإن لم يكن من الانتفاضات الداخلية ومفاسدها ، وهى من أعظم ما مئى به نظام من أنظمة العالم من أعدائه وجهلة أهله معاً ، فمن غادة المغول التى أبادت الحرث والنسل وأحرقت اليباس والأخضر ، وإن لم يكن لا من هذه ولا من تلك ، فمن الغارات الصليبية التى آثالت بها جيوش أوربة كلها بقضها وقضيضها عليه موجة فى إثر موجة مدة قرنين

كاملين ، وإن لم يكن لا من بينك ولا من هذه ، فمن السكارنة الأوربية التي بدأت طلائعها قبل قرنين إلى أن أطبقت عليه في الحرب العالمية الأولى وما زالت ممسكة بخناقها

وهاتان الحقيقتان إنما ترجعان - في واقع الأمر - إلى بقاء القرآن نفسه بنجوة من كل هذه التيارات سلياً لم يمسه سوء ، وعمله في نفوس المسلمين بما تثيره تلاوته من شعور سليم يحملهم على تصحيح المواقف التي كانت تدفعهم إليها الدسائس والحركات الهدامة دفماً ، على اختلاف حظوظهم من تلاوته وفهمهم لما يتلون

ونحرص على ذكرها لما يترتب عليهما من أثر في تبيان وجهات الإسلام الحديثة والأسلوب الذي تسير عليه

أما الحقيقة الأولى ، فتتجلى في المظهر العقلي العام للمجتمع الإسلامي في تلك العصور على ما أصابه من فساد . وقد كان دوام هذا المظهر سلياً إلى حد ما امتداداً لورثة التوجيه القرآني للمجتمع الأول والسماحة التي أنصف بها وأثرت أثرها في نفسية المسلمين وعقليتهم ، فكانت فيهم غريزة أو كالغريزة الموروثة إذا نعددها التوجيه الفاسد بمواقفه كان فيها القدرة على الاعتصام بأصالة طبيعتها

ولعل وجه هذا المظهر يبدو واضحاً بالمقابلة بينه وبين المظهر العقلي العام لأوربية في عهد الرينسانس ، عهد الانبعاث والحياة ، فقد تبيح لنا هذه المقابلة أن نعد ما بلغه المجتمع الإسلامي من الجمود العقلي في أشد عصور تأخره طوراً من أطوار الإصلاح الذي بدأته أوربية يومئذ . فلم يشهد هذا المجتمع ما شهدته أوربية : من تحجر العقل ، وشلل الفكر ، وجذب الروح ، وقسوة الضمير في مصادرة الحريات ، والضرارة في إباداة الكتب ومحاربة العلم والعلماء ، وإنزال أقسى العقوبات وأقصاها بالملفكرين من أجل أفكار تبدو لنا عادية ، كانوا يعلنونها في سبيل الإصلاح والتجديد . ويذكر التاريخ أن عدد الذين عوقبوا في أوربية بلغ الألفاً ألفاً ،

أُحرق منهم آثنان وثلاثون ألفاً أحياء ، كان منهم العالم الطبيعي « برونو Brunos » ، وقد نُقِمَت منه آراء ، أشدها قوله بتمدد العوالم ، فحُكِمَ عليه بالقتل ، وأُحرق ميتاً . وعوقب العالم الطبيعي الشهير « غاليليو » بالقتل ، لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس . وحُبِسَ « دى رومنس » فى روما حتى مات ، ثم حوكت جثته وكتبه ، فحُكِمَ عليها بالحرق ، وأُلقيت فى النار ، لأنه قال إن « قوس قزح » ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد ، بل هى من أنعكاس ضوء الشمس فى نقط السماء . وأصاب « جيوفت » فى جنيف ، و« قاتى » فى تولوز ما أصاب هؤلاء ، وحرُقا شيئاً على النار ، لآراء لا تستوجب حتى التعزير ، إن لم نقل تستوجب الاحترام والتقدير

ولا جدال فى أن تاريخ الاسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر والعلم الذى عرفته أوربة . والأحوال النادرة التى عوقب فيها رجال على آرائهم تعد بشادة جداً فى المجتمع الإسلامى ، وكانت إلى ذلك تتلبس بها بواعث سياسية خطيرة تعتمد قلب الدولة والقضاء عليها ، كالذى كان من قتل « الحسين بن منصور الحلاج » ، وهو رجل مجوسى الأصل من أهل بيضاء فارس ، اشتغل بالخوارق والحيل ، وأدعى العلم بالأسرار ، ثم تنهى إلى ادعاء النبوة ثم الربوبية ، واستغوى غلمان قصر « المقتدر بالله العباسى » لينفذ بهم إلى تحقيق غايته ، فأدى ذلك إلى قتله . وذكر إمام الحرمين فى كتابه « الشامل » أنه كان بين « الحلاج » وبين « الجنابى » رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة ، وأن ذلك هو السبب الحقيقى فى قتل « الحلاج » . وهذا ، كما يرى ، باب آخر يتعلق بحماية الأمن

وحفظ النظام وسلامة الدولة ، وهو غير ما نحن فيه

ونكتفى بهذه الأمثلة اليسيرة من ذلك ، ونحسبها كافية فى الموازنة الفاصلة لإظهار صورة تأخر المسلمين العقلى على حقيقتها حين نضعها إلى جانب هذه الصورة

من تأخر الأوربيين على سبيل القياس والتنثيل بما يجارى الواقع ولا يخالف مذاهب
الصدق

وأما الحقيقة الأخرى ، فهي اتصال تاريخ الإصلاح والتجديد فى الإسلام ،
فى مختلف عصوره . فمن ملوك من طراز الفاتحين الأوائل فى دينهم وتقواهم وفى
سيرتهم وأخلاقهم ، بظهورهم فى الفترات ، ويسعون فى إعادة شباب الإسلام
 وإقامة حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة . . إلى علماء مصلحين رافعين
 لمشاعل التجديد ، فائرين على البدع والمحدثات التى غيرت وجه الإسلام ووجهته ،
 ينمون على المسلمين أنحرافهم عن سنن القرآن ، ويدعونهم إلى الرجوع إلى الإسلام
 الصحيح فى صورته الحقيقية قبل أن تعدو عليه الشعوبية ومسلمة اليهود وأضرابهم
 بالإنفساد والتشويه .

وبذلك كانت مشاعل الإصلاح فى المجتمع الإسلامى . تسلسلة يتقد بعضها من
 بعض . وكانت أضواؤها تختلف سطوعاً وخفوتاً على قدر طاقة مشعلها ، ومرجعها
 جميعاً فى أخذ أقباسها إلى أصل الدين ، وهو القرآن وكونه حياً محفوظاً من
 التحريف والتبديل ، عالياً مفارقه ، متألقاً أشعته . وما زال الكتاب والسنة
 الصحيحة يبعثان فى نفوس الأذكىاء المثقفين الثورة على الوثنية والبدع والمحدثات ،
 والثورة على ترف المترفين وآسبداد الملوك ، والثورة على الجور والتقليد ومجانفة
 الفطرة وسنن الطبيعة التى لا تبدل لخلقها كما سنرى أمثلته فى التجديد الحديث
 ولقد كان لا استمرار هاتين الحقيقتين فى العالم الإسلامى أعظم الأثر فى بقائه
 مناسكا وفى حفظ الإسلام من الزوال

تلك هى الصورة المصغرة للعالم الإسلامى حين استيقظ الغرب ، وطلق يبعث
 عن مجالات غنية ، ليطس على سلطانها ونفوذه ، ويفغى حضارته المادية بمعادنها
 وخاماتها وبترونها ، ويفتح فيها لاقتصادياته وتجارته أسواقاً تستهلك منتجاته
 وتنمى ثروته

وأما مشكلات الإسلام الحديثة ، فهي ناشئة من الاحتلال الأوربي ، وهي تكمن وراء طبيعة الاحتلال ووسائله في تثبيت أقدامه في دياره ، ومنها تعطيل أسبابها وبواعثها ، ثم تأخذ صيغاتها المختلفة ، وتتكاثر وتعمق لتستحيل إلى أمراض متوطنة تمك المجتمع وتحمل طاقته وتبطل مقاومته

وقد دهم الغرب بلاد الإسلام ، وحمل معه إليها مظاهر حضارته ومذاهبه في الدين والاجتماع ، ومنازعه في السياسة والاقتصاد ، وأذواقه في الفنون والآداب ونوازع الحياة ، فأخذ الناس من كل ذلك بمحفوظ يختلف باختلاف حظوظهم من الاتصال بها أو القرب منها والبعد عنها ، ففتن بها أناس بسرفون في حسن الظن والتقليد ، وعدوها خيراً كلها . فاندفعوا يقتبسون من ظواهرها ما يستطيعون اقتباسه ، ومن منازعها ما يسهل أخذه ، لا يعدونه ، أو قلما يعدونه إلى ما وراء ذلك من استبطان الدخائل وتعمق الأصول والغايات . وأنكرها أناس ، فازوروا عنها ، وعدوها شراً كلها ، فلم يأخذوا منها شيئاً ، وحاربوا منازعها ، لأنهم يزدرونها ويمقتونها ممتناً ظاهراً . ووقف آخرون موقفاً وسطاً ، لا يندفعون مع أولئك في التقليد ، ولا يشابهون هؤلاء على الآزورار ، وإنما يلاحظون الظواهر ويتعمقون البواطن ويرصدون الوجهات والغايات ، ثم يعرضون ذلك كله على العقل والمثل القومية والدينية فيأخذون منه أشياء ويرفضون أشياء ، ثم يلائمون بين ما يأخذون وبين مزاج الفكر الإسلامي وأصوله ، ويضيفون عليه من ذلك روحاً جديداً يجمعه مدكاً خالصاً للحياة الإسلامية . وبهذا زاد هؤلاء في ثروة الفكر من ناحية ، وأضعفوا من تقليد الفريق الأول ، كما خففوا من حدة الفريق الآخر من ناحية ثانية ، بل صنعوا أكبر من ذلك فأبطلوا مع الأيام كثيراً أو قليلاً من آثار نوازع الاحتلال في استخدام وسائله المادية والمعنوية في تغليب هذه الحضارة ومراقبتها على الحضارة العربية الإسلامية للاستعلاء بها على الإسلام وحضارته ولكن الاحتلال لا يقف ولا يكف عن المضي في سبيله إلى غايته ،

والحضارة عنده ليست غير وسيلة من وسائل تثبيت أقدامه في الديار المحتلة إلى آخر الزمان !

وقد كان هدفه - ولا يزال - إذابة شخصية المحتلين في هذه الحضارة ، وتغيير ما بأنفسهم من روح الاعتزاز بعقيدتهم والتعلق بلغتهم وبتاريخهم والإكبار لحضارتهم تغييراً يسلمهم إلى الخضوع لإرادته ، والاستسلام لسلطانه ، والفناء في مذهبهم ، فهو يعلم من سلطان كل أولئك على نفوسهم الشيء الكثير ، ويعلم أنه لن يستطيع أن يؤدي عمله ، وينتهى إلى غايته ، وينجح نجاحاً تاماً ، إلا إذا مهد له السبيل بتوجيهات خاصة ومنازع جديدة تقطع صلة المسلمين بدينهم وتضعف ثوابهم إلى الاستقلال عنه والتردد عليه

فسمى إلى ذلك - أول ما سعى - بالتبشير ، وكان يظنه سلاحاً نافذاً ، فلم يثمر له أية ثمرة إيجابية ، وذهبت مساعيه في نشره أدرج الرياح ، ووجد أن المسلمين غير محتاجين إلى من يهديهم إلى « عيسى » عليه السلام ، فهم يؤمنون « بعيسى » و « مريم » وبجميع التعاليم المعقولة في المسيحية ، ويبرئونهم وأمه من كل شيء كما يبرئهم المسيحيون

وحينئذ فكر في نشر التعطيل بين المسلمين ليكون الوسيلة إلى قطع صلتهم بالإسلام ، فأسس لذلك مدارس خاصة ، كالمدرسة العظمى التي أسست في الهند ، لنشر تعاليمه ، وبث مبادئها في نفوس النشء المسلم . فضل كثير منهم ، وأثربوا روح الإلحاد في قلوبهم ، ولا سيما أولاد الأمراء الذين كانت معظم طلاب تلك المدرسة منهم . وهال ذلك السيد « جمال الدين الأفغاني » ألف رسالته المشهورة « الرد على الدهريين » ، وانتشرت الرسالة في طول البلاد وعرضها ، فأخرج كثير من أمراءها أولادهم من تلك المدرسة ، ورجع آخرون عما كان خاسر نفوسهم من التعطيل والإلحاد

وعلى السيد « الأفغانى » مقصد المحتلين من ذلك بأنهم رأوه أقرب وسيلة إلى أغراضهم ، وتأيد سلطانهم فى الهند ، وقال : « إنهم وجدوا أن الديانة الإسلامية تطلب من أتباعها أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان فى أوطانهم ، ولا حظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام التى لا يمكن أنسلاخه عنها ، ولا آتباعها من فطرة أبنائه ، ففكروا فى أمر بضمف أثر هذه العقيدة فى نفوسهم ، فرأوا أن أقرب وسيلة إلى نيل مرادهم هو نشر التعطيل بين المسلمين »

وبشير مستر « جب » إلى شبكة المدارس الأجنبية التى انتشرت ، من منتصف القرن التاسع عشر ، فى معظم البلاد الإسلامية ، وتوات الدول الأوربية تأسيسها فيها ؛ وإلى أثرها فى صياغة أخلاق التلاميذ وتكوين ذوقهم وإعدادهم للتأثر بالمؤثرات الأوربية ، فيقول فى بعض كلامه :

« فى أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، نفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإثناء التعليم العلمانى بإشراف الإنجليز فى مصر والهند . وامل هناك نصيباً من الحق فى التهمة التى تُرمى بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التى وليت ذلك فى البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة . ولكن الذى فعلته بلا ريب أنها ربّت فى التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة إلى حد ما فى أوطانهم الأصلية . وبإضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ ، أدخلت فى بناء المجتمع الإسلامى أداة هادمة ، وقطعت بعض الأواصر التى كانت تحفظ تماسكه »

وفى هذه الإشارات الموجزة إلى نتائج وجهة الاحتلال وأثر مساعيه فى تغيير العقائد والأنظمة الاجتماعية ، تظهر الأصول التى تنشأ منها كليات مشكلات الإسلام فى هذا العصر ، وتنحو هى وجزئياتها الكثيرة فى النواحي النظرية

والعملية نحو نقض صرح الثقافة الإسلامية النالد من أساسه وتحطيمه تحطيمًا شاملاً
ومن أجل هذا نشأ الاستشراق في بلاد الغرب ، وأخذ جماعة من الغربيين
في كل دولة ذات مطامع استعمارية يعكفون على لغات الشرق وتاريخه ودينه
دراسة وتأليفًا ونشرًا ، وتلك هي الغاية التي يعملون لها ، ويثيرون من أجلها
المشكلات بوجه الإسلام

* * *

فهاتان هما صورتان الموجزتان ، لم أبلغ منهما كل ما تريد ، ولكنهما على
كل حال تلقيان شيئًا من الضوء على الوجهات الحديثة للإسلام في هذا العصر
وأبدأ بالموضوع نفسه ، فأقول :

لما باغت أوربة العالم الإسلامي ، وبدأت تغزوه من عن يمينه وشماله ، وتتغلغل
جيوشها في قلبه ، منذ القرن الثامن عشر - كان على الإسلام أن يكلم شعبه ،
وبحارب في ميدانين ، في الميدان الداخلي للتححرر من أغلال العصور الوسطى ، وفي
الميدان الخارجى ردّ عادية المعتدين الغزاة

فصاغت الأقدار في وقت متقارب جداً وجهته إلى ذلك في مظهرين هما
الإسلام كله ، ولا يكون الإسلام إسلاماً إلا بهما مجتمعين ، مظهر مادى حربى ،
ومظهر دينى روحى

أما المظهر المادى الحربى : فقد كشفت عنه الإمبراطورية العثمانية والدولة العلوية
بمصر ، حين سعى بعض السلاطين العثمانيين وساسة الترك إلى اقتباس وسائل القوة
والتنظيم الحربى والإدارى من المظاهر المدنية لحياة أوربة ، وسعى إليه كذلك « محمد
على » فى « مصر » من الناحية الحربية والاقتصادية والعلمية والعمرانية على حظوظ
مختلفة من التوفيق . وقد أرادوا جميعاً ، بعد أن لمسوا تفوق الغرب بوسائله الحديثة ،
أن يتهياوا للدفاع عن الوطن الإسلامى بمثل الوسائل التى يصطنعها . ولكن هذه

التي تَنَظَّمَتْ جاءت ، لسوء الحظ ، متأخرة جداً ، إذ كانت أوربة قد استمكلت وسائل نهضتها خلال ستة قرون متقدمة توفرت فيها على الإصلاح والتجديد والأنبعاث ، وأخذت تعدو إلى غايتها عدواً ، بل تطير إليها طيراناً ، وتتمخض صناعاتها الحربية كل يوم عن سلاح جديد تبادىء به أعداءها قبل أن يتمكنوا من الاستعداد للقائها

وليس المهم في بحثنا أن نشير إلى غناء ذلك أو عدم غنائه يومئذ ، وإنما المهم ما أريد أن أشير إليه من دلالاته العملية على وجهة الإسلام ومبرورته ووفائه بمحاجات كل عصر

فإن إسرار هاتين الدولتين إلى إدخال وسائل الغرب ، بل قبول التنظيم الأوربي في الإدارة والعمران والفن ، هو مظهر واضح لهذه الوجهة فيه والاستعداد لديه . وهى وإن تسكن من البديهيّات ، إلا أن الجود الذى مئى به بعض المسلمين والعصبية التى ابتلى بها غيرهم فرموا الإسلام بالعقم والجود والعداء السكل جديد ، يجعلان من هذه الظاهرة البديهية حالة تستوجب التنبيه والدلالة عليها

فما من شك أن نظاماً من الأنظمة كائناً ما كان نوعه وشكله ، لا يُسَكَّب له التوفيق ما لم يكن له سِنَاد من القوة . وإذا كان النظام شطراً ، فالقوة التى تسنده هى شطره الثانى ، وبدونهما لا بُدَّ للنظام وجود . ومثلها مثل الجسم والروح إذا آتت معاً كانت الحياة ، وإلا فالموت

ومن هنا حث القرآن المسلمين على إعداد القوة ما استطاعوا إلى إعدادها سبيلاً ، وأن لا يقفوا تفكيرهم على قوّة بعينها ، إذ الأسلحة والقوى تتنوّع بتنوّع الأزمنة وتطور العقل والعلم والصناعات . يدل على ذلك هذه الآية السكريمة ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ، وهذا التفكير الذى فى كلمة ﴿ قُوَّة ﴾ ، والتفكير فى نحو اللغة العربية يفيد استغراق الجنس كما يقول العلماء ، ويفسر لنا

في هذه الآلية إرادة التطور في مفهوم القوة باختلاف العصور ، كما توجب الآلية تقصى الاستطاعة إلى أبعد مداها لإعداد الوسائل الصناعية والفنية لإنتاج القوة

وذلك ما أدركته العقلية الإسلامية حين رأت شيئاً جديداً وواجهت أمراً واقعاً لا سبيل إلى دفعه إلا بوسائله ، فأنصرفت إلى إعداد جيوش لها كل ما للجيوش الحديثة من صفات الطاعة والنظام وآلات القتال ، وإلى إعداد أساطيل في البحر كالتي يملكها الغرب . ولكن الدول الأوربية كانت أكثر عُدَّة واستعداداً وحيلة ، فالأسطول الفخم الذي بناه « محمد علي » أحرقتة هذه الدول غيلة في واقعة « نافارين » ، ثم تألبت عليه ، وحالت بينه وبين اقترحام « الأستانة » لا حباً للدولة العثمانية التي تعدّها أعظم أعدائها ، ولكن تقلباً لأظفار الدولة الفتية التي خلفت « نابوليون » على « مصر » ، وقوى سلطانها وامتد جنوباً وشمالاً ، حتى عاد أمرها مرهوباً يخشى من ظهوره وتغلبه أن يكون عاملاً جديداً في صد أوربة عن وجهتها ، وقد يستطیع أن يجمع كلمة المسلمين ويقضى على طغيانها . ثم كان من دسائس أوربة بعد وفاة « محمد علي » ما أضعف خلفاءه ، ومهد لاحتلال مصر . وبذلك أزال هذا العامل الخطير والمنافس الجديد ، ورجعت إلى منافسها القديم الذي تظاهرت بحمايته من « محمد علي » ، فلم تترك سيلاً تنفذ منه للقضاء عليه إلا سلسكته ، حتى أخذت أنفاسه في الحرب العالمية الأولى

ومن هنا زالت من وجه أوربة القوة التي أقضت مضاجعها عصوراً طويلة ، وأثارت جنونها منذ احتل « محمد الفاتح » القسطنطينية وتغلغلت الجيوش العثمانية في البلقان ، إلى أن نطحت جيوش « سليمان القانوني » أسوار « فينة » ، فتداعت الدول الأوربية إلى حلف سارت بتنفيذ خططه رويداً رويداً حتى أدركت غايتها على نحو ما

ونقول : « أدركت غايتها على نحو ما » ، لأننا نعتقد أن القوة لا تتمثل

بآلات القتال وحدها ، وأن شهر السلاح دائماً غير ممكن لكل أحد ، وأن وراء هذا النوع من القوة قوى أخرى بها توجد إذا فُقدت ، وهي بيد الإسلام في هذا الشرق ، والوجهات الجديدة ترى المتأمل كيف هو يدركها ، وكيف يسعى في توفيرها لنفسه سعياً جاحداً ليس من السهل كبحه بعد اليوم

وأدع الاطالة في هذا الشأن ، لأنقل إلى المظهر الثاني من المظهرين اللذين هيأتهما الأقدار في مطلع العهد الجديد ليقظة الإسلام ، وهو المظهر الديني الروحي وأعني به تلك الحركة الدينية العنيفة التي نشأت في جزيرة العرب ، في أثناء القرن الثامن عشر ، فلفتت إليها العالم الحديث في الشرق والغرب ، واضطرتته أن يُعنى بأمرها

وهي حركة « الوهابيين » التي أحدثها الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » ، وقد عاصرت فتح « نابوليون » لمصر ، وكانت خليفة بأن تدعى « حركة الحمديين » نسبة إلى باعنها وطبيعة دعوته إلى التوحيد الخالص الذي بُعث به رسول الله محمد ابن عبد الله ﷺ ، ولكنها نسبت إلى أبيه ، وأبوه لا يد له فيها ، لأمر ما أرادته السياسة العثمانية وأشياء حين أشفقت من انتشار سلطانها أشد الإشفاق ، فقاومتها ما وسعته المقاومة ، وبالغت في تشويه غايتها ، وعزتها إلى الابتداع والخروج على الدين ، وجعلت هذا النبز عنواناً على ما تزعمه من ضلالها

وندع التاريخ السيامي لهذه الحركة ، لنفرغ لوجهتها في الإسلام كما تهدي إليها كتب زعيمها ودراسات الباحثين المحابدين من الشرقيين والغربيين . والجمع عليه أن هذه الحركة في الإسلام جديدة وقديمة معاً ، والواقع أنها جديدة بالنسبة إلى المعاصرين ، ولكنها قديمة في حقيقة الأمر ، كذلك يقول « طه حسين » في « الحياة الأدبية في جزيرة العرب » . وهو يوضح ذلك بأنها « ليست إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المظهر من كل شوائب الشرك والوثنية ، هي

المدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالصاً لله وحده مُلغياً لكل واسطة بين الله والإنس الناس ، وهي إحياء للإسلام العربي وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن على أختلاط بغير العرب . فقد أنكر « محمد بن عبد الوهاب » على أهل « نجد » ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية في العقيدة والسيرة . كانوا يعظمون القبور ، ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله ، ويعظمون الأشجار والأحجار ، ويرون أن لها من القوة ما ينفع وما يضر . وكانوا قد عادوا في حياتهم إلى حياة العرب الجاهليين ، فماشوا من الغزو والحرب ، ونسوا الزكاة والصلاة ، وأصبح الدين أسماً لا مسمى له . فأراد « محمد بن عبد الوهاب » أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفأة المشركين قوماً مسلمين حقاً على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرناً »

ثم يقول : « ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب ، وحاربوه في داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها ، لكان من المرجو جداً أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ، كما وحدث ظهور الإسلام كلهم في القرن الأول »

ويعرض على هذا السان في بيان أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب من نواحي مختلفة ، وفي إيقاظ النفس العربية ، وما وضع أمامها من مثل أعلى أحبه وجاهدت في سبيله بالسيوف والقلم واللسان ، وما أفاد العالم العربي كله من هذه الحركة العقلية الجديدة ، وهو كلام يحسن الرجوع إليه في هذه الرسالة

ويقول « لوثرروب ستودارد » الأمريكي : « إن هذه الثورة التي أشعلها « محمد بن عبد الوهاب » فاشتعلت وآنقت ، أندلعت ألسنتها إلى كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي . . . فتبدت نباشير صبح الإصلاح ، ثم بدأت اليتقطعة الكبرى في عالم الإسلام »

والمنفعى لأطوار الإصلاح في العالم الإسلامي، وعلاقة بعضها ببعض، يرى في هذه الثورة امتداداً لانتفاضات قديمة عرفت العصور الإسلامية في آثار إسلام حزم « في الأندلس، ثم في ثورات أتباع الإمام « أحمد بن حنبل » ببغداد فيـ كانوا يرون ما يتعرض له الإسلام من لوثات أهل البدع والأهواء وما يهدد المجتمع من سرف المسرفين في الشهوات والموبقات، ثم في انتفاضة شيخ الإسلام تقي الدين « أحمد بن تيمية » في بلاد الشام في القرن الثامن الهجري، وهي أروعها تجديداً وأبعدها أثراً في إصلاح الفكر الإسلامي. ومن كتب ابن تيمية وأتباعه كآبن القيم وآبن قدامة وآبن كثير وغيرهم، اقتبس « محمد بن عبد الوهاب » جذوته الإصلاحية، فدرس القرآن والسنة دراسة متجردة من أوهام الخرفين وأهل الأهواء، بعثته إلى هذا التجديد الذي وُفق فيه توفيقاً لم يكتب لأولئك، لأنهم خذلتم السياسات، ووجد هو من السياسة حماية له ومن قوتها نصراً لدعوته، فكان له هذا الأثر البعيد الذي يصفه « لوثر ب ستودارد » في عالم الإسلام الحديث، وهو أثر يطول شرحه جداً إذا تقصينا في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وبلاد شمال إفريقيا والهند وتركيا وغيرها، والمهم فيه نتيجة من حيث إنه وضع صورة الإسلام الأولى في نصابها التام من الحقيقة، ثم تأثير ذلك في نفسية المسلمين وتوجيهها إلى المثل الأعلى، ثم تأتي من بعد هذا وذاك دلالاته على الحيوية الكامنة في الإسلام وعلى ما يجيش في نفسه من إرادة الحياة الراقية للمسلمين، وإن كان لا يزال يجد من جهلاء المسلمين وبعض حكامهم وساستهم وعلمائهم أيضاً أزواراً عنه حيناً، وحرباً عليه وذوداً للإصلاح حيناً آخر، لغايات في أنفسهم لم يصهرها الزمن ولم يطهرها من لوثاتها الموروثة بعد

ولما تجسم للدولة العثمانية ولمفكرى الإسلام بعد هذا العهد شيخ « المسألة الشرقية » التي نجمت منذ سنة ١٨٢٥ م، بتفاقم التدخل الأجنبي الأوربي السيامي والاقتصادي في البلاد الإسلامية، وأدركوا جميعاً أن حلول السكارثة العظمى غير

بعيد عنهم ، وأنَّ عليهم أنْ يستنفروا الرأى الإسلامى العام ، ظهرت حركة « الجامعة الإسلامية » . وكان المسلمون فى كل مكان يتلمفون إلى العثور على وسيلة تعينهم على أن يستعيدوا سلطانهم على مصائر أمورهم ، فاستجابوا لها بحماسة فائقة ، وألتبس الزعماء الوسيلة فى الشعور بالوحدة الدينية ، وهى أكبر قوة مشتركة بين المسلمين نظم شنائهم وتجعل منهم قوة مرهوبة يحسب حسابها فى الصراع الدولى إذا أحسنوا معها العمل على اتخاذ الوسائل الحديثة المجدية ، وكثر أنصار فكرة « الجامعة الإسلامية » من المفكرين ، وسعوا لها طوال القرن التاسع عشر ، وبلغت ذروتها فى عهد السلطان « عبد الحميد الثانى » ، وكان أكبر دعائها فى العالم الإسلامى « جعل الدين الأفغانى » و « عبد الرحمن السكواكبى » و « محمد عبده » ، وأعظم مؤيديها مسلمو الهند الذين شعروا بعد زوال دولتهم على يد « شركة الهند الشرقية البريطانية » بحاجتهم الشديدة إلى التأييد الخارجى أمام خطر الهندوكية والاستعمار البريطانى

وما من شك فى أن حركة « الجامعة الإسلامية » هذه قد نجحت مقدماتها نجاحاً تاماً من حيث استطاعت أن توقظ الشعور بالوحدة الإسلامية وتقويه وتقوية لم يسبق لها مثيل منذ عصور ، وقدّم المسلمون فى أنحاء الأرض كل الدلائل الحسية على تأييدها وشد أزرها . وكان مقدراً أن تنجح بنتائجها ، لولا عوامل كثيرة كانت تسكن وراء طبيعتها والاستجابة لها ، وأهمها ما كان يعوزها من الملاءمة بين سياستها ووسائلها وبين القوى الجديدة التى كانت تفتح العالم الإسلامى ، ولم تسكن الدولة العثمانية يومئذ قادرة على تحقيق هذه الملاءمة بوجه من الوجوه ، فسياستها فى الحقيقة كانت قائمة على خداع دول أوربة وتخويفها بشبح إعلان الجهاد فى العالم الإسلامى ولم تعد له وسائله الناجحة ، واقتصادياتها كانت أقرب إلى الإفلاس منها إلى الكفاف ، وصناعاتها الحربية وغير الحربية غير موفورة ، وإدارتها قائمة على الاستبداد والرجعية ، كالذى ظهر فى معظم حركات السلطان « عبد الحميد

الثاني « ونوجيهاته ، وأدى إلى إسقاطه ، بعد ثلاثين عاماً من حكمه ، استطاعت « اليابان » بمثلها أن تكون أمة ذات حضارة عظيمة ، وقوة هائلة تجاهد بها الدول الكبرى ، فتضرب روسية ، وتنافس أوربة وأمريكة ، ولم يحسن « عبد الحميد » فيها من العمل غير سياسة التخويف وخلق « مدحت » ونفى الأحرار وتقريب « الصيادي » وتخدير الشعوب العام بمخدرات التصوف وبرودترايب القبور بدلا من إيقاظه بمنهات الإصلاح ، وخنقه بدخان التكايا والزوايا بدلا من إحيائه بمنعشات القوة وبأصدقاء المعامل والمصانع تتجاوب بها آفاق البلاد .

وكان شأن الممالك الإسلامية المستقلة الأخرى كإيران والأفغان كشأن الدولة العثمانية في الحكم الاستبدادي المطلق إن لم يكن أظفح وأقبح منه .

ولقد هال زعماء الفكر في الإسلام ما لمسوه من مفسد هذا الاستبداد في المجتمع ، وما أدركوه من انعدام الانساق بين منازعه وبين روح الإسلام وما يدعون إليه : من الإصلاح ، وبعث حركة « الجامعة الإسلامية » ، وقدروا أن مساعيهم ذاهبة أدراج الرياح حتما مع تغلب الاستبداد وفساد الأوضاع الإدارية والاجتماعية والسياسية ، فأتجهوا إلى مقاومته ، وفضح السيد « جمال الدين الأفغاني » ، وهو داعية الحركة الأكبر ، تصرفات الطبقات الحاكمة ، ودعا إلى إقامة الحكم الشورى ، وتعالى أصوات المصلحين باستنكار الاستبداد ، ذاهبين إلى أنه أصل لكل فساد ، ناعين على الحكام انحرافهم عن سبيل الإسلام في حكم المسلمين وإدارتهم ، منبهين على عواقب ذلك ، ولم يمنعمهم ما علموه من تأصله في طبائعهم وتعذر إقلاعهم عنه من تنبيه المسلمين على مضاره ، وإثارتهم إلى تقويض صروحه ، حتى قال في ذلك « الكواكبي » كلمته الرائعة المعبرة عن قوة يقينه وبُعْدِ مطارح أمله في صدر كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » :

« كليات حق وصحيحة في واد ، إن ذهبت اليوم مع الرياح فقد تذهب غداً بالأوتاد »

ولقد ذهبت هذه الصيحات فعلاً بالأوتاد، وطوحت بعبد الحميد وضوانته، وعملت أفسكاره وأفسكار بقية المصلحين عملها في توجيه العالم الإسلامي إلى تغيير النظمه الحكم وإصلاح نفسيات الحاكمين، كما أفادت دعوتهم إلى « الجامعة الإسلامية » بتأثيرها النفسى فى المسلمين، بما أيقظته فيهم من الشعور القوى بالوحدة الذى ما زال ماثلاً فى كل ما تلاها من الحركات فى البلاد الإسلامية، وإن أخفقت فى بلوغ نتيجةها السياسية لا قدمنا من الأسباب

وهكذا كانت مهمة زعماء الإصلاح الإسلامى، منذ بداية عهد اليقظة، تستهدف وجهتين: الهدم والبناء فى وقت معاً، ثم تقيم البناء على أساس مهم جداً لا يتم أمر عظيم كالذى يبنونه بدونه، وهو: تغيير نفسية الشعوب الإسلامية، وتحريرها من ركام المنازع الفاسدة والأهواء الدخيلة فى الإسلام. وهو أساس أرشد إليه القرآن فى قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾، وبه نقل الرسول العرب من حال إلى حال، وعليه أقام عمود الإسلام

وكان هؤلاء الزعماء يعلمون أن محاولة الإصلاح بالبدء بتغيير معالم الحياة الظاهرية وحده إنما هو أخذ بذنب الإصلاح لا برأسه، وأن ما يملأ جوانب النفسية الإسلامية من رواسب المقائد الباطلة يقف حاجزاً عالياً وسداً منيعاً دون بلوغ كل أمل فى تغيير الأوضاع القائمة ما لم يغير ويملا بالأفكار القوية السليمة النابضة بالحياة كما يوحىها الإسلام الصحيح

لهذا مضى كبار المفكرين فى آتتهاج خطة الإصلاح الدينى على نحو ما صنع « لوثر » فى الغرب، وانتقل به الشيخ « محمد عبده » وتلاميذه وخلفاؤه فى أواخر القرن التاسع عشر إلى ميدان كان أرحب أفقاً وأكثر ملاءمة للعواقف الجديدة التى دُفع إليها المجتمع الإسلامى دفعاً، وأمكن قدرة على حل المشكلات الحديثة التى أثارها الغرب بتوجيهاته إلى الإلحاد والتشكيك فى الإسلام، أو نشأت من

مغالبة الثقافة الحديثة في أمهات مسائل المعرفة ، خاصة في تركية ومصر والمهند
فبنوا منهاجهم الجديد على أصول راقية كان لها أكبر الأثر في توجيه النهضة
الحديثة ، وتحرير الإسلام من أغلال الجود ، وبعث المسلمين في سبيلهم الطبيعي
إلى التحرر من كل سلطانٍ عليهم غير سلطان الله
وكان في هذا المنهاج هدم ، وكان فيه بناء .

كان فيه هدم لأصول العوامل القديمة التي عدت على الإسلام بإفساد جوهره
وتغيير صورته ، ونقضٌ للشبهات التي يحوكمها دعاة التعطيل الذين ربهم مدارس
الاحتلال ويرددها الشعوبيون ونفر من المستشرقين في الدين ورسوله ، والإسلام
وأهله ، والعرب ومدنيتهم ، والقرآن وإعجازة ، والفصحى والعامية ، والحروف
العربية والحروف اللاتينية ، إلى آخر هذه السلسلة وفروعها المعروفة
وكان فيه بناء وإحياء للعاطفة الدينية المهدبة يرمى إلى تقوية الروح الإسلامي ،
وإعداده للصمود في وجه الحملات المفرضة المنظمة على الإسلام ودحرها .

وقد تناولات هاتان الوجهتان من الهدم والبناء أمهات قضايا العقيدة
والشريعة ، والمجتمع والنظام والتربية والأخلاق ، وأصول التفكير ، وقواعد
العمل في الإسلام . وحفلت دراساتها بالتحليل والتعليل في تبيان وجهات الإسلام ،
وكشفت عما هو منه وعما هو غريب عنه ونحوم عليه من العقائد والآراء ، كما
حفلت بالبحث في ماضي الإسلام وحاضره ، وفي هدايته وآرثائه المعنوي وبعثه
على الارتقاء المادى ، وفي موقفه من حرية الفكر والعقل والعلم والمادية ، وفي
مسالكه في السياسة والاقتصاد والحرب والسلم ، وفي معالجته لقضايا الإنسانية
الكبرى ، وفي الصلة بينه وبين الأديان وإدراكه للعلاقات الدولية وشمول نظريته
الوحدانية الإنسانية وقدرته على النهوض بها والجمع بين الأجناس المختلفة والتسوية بينها
في المساكنة والعمل وتهيئة الفرص . وتنازلت ذلك كله بأساليب علمية قوية واضحة

القسمات ، ونسقى من التفكير المرتب يجمع أحسن ما فى القديم والحديث
هذه الحركة الخطيرة ظهرت فى مصر ، فما لبثت أن جاوزت حدودها إلى الهلال
الخصيب بل إلى العالم الإسلامى كله ، وكانت مجلة « النار » سفيرا إلى ، حملت
أفكارها أربعين عاما إلى بلاد العرب كما حملتها إلى بلاد الترك والهند والصين
وأرخبيل الملايو ، فأثارت اهتمام المسلمين فيها بالإصلاح الدينى وكونه أصلا يقوم
عليه كل إصلاح

وترددت أصداؤها فى آفاق الأنضول ، كما ترددت فى أندونيسيا والهند ، وفى
أندونيسيا يذكر ك . ك . برج من تأثيرها فى الشبان الأندونيسيين الذين يدرسون
فى « الأزهر » أو فى « مكة » أن هؤلاء جميعا رأوا فيها الإسلام على نور جديد ،
لم يروا فيه مثالا للتشدد والجود ، ورأوه لا يزال الدين المختار بين الأديان وحامل
المثل العليا لكل زمان مضى والمثل الجديدة لكل زمان آت ، وهو متجدد
الشباب ، حامل لواء كل تقدم ، شديد فى تسامح ورفق . قال : « واصبح الذين
أقتبسوا من نور المنار فى مصر « منارات » صغرى فى أندونيسيا بعد أن عادوا
إليها »

وفى الهند تمخضت حركة فيها من هذه الحركة تشابه فى المناشئ والمنازع
والوجهات ، متأثرة بها ومستقلة بظروفها الخاصة أبطا ، وكان ما أشرنا إليه فى
الكلام على « الجامعة الإسلامية » من شعور المسلمين فيها بالحاجة إلى التأييد
الخارجى أمام خطر الهندوكية والاستعمار البريطانى قد أثارهم فى الوقت نفسه
لإصلاح الداخل ، فظهرت فيها حركات دينية واسعة النطاق تتابعت بين حين
 وآخر فى أثناء القرن التاسع عشر ، وكانت كلها من طراز الحركة الدينية فى جزيرة
العرب التى شعارها « الرجوع إلى القرآن » . وكان تتابع هذه الحركات تمهيدا
لتلاقى النهضة الهندية بالنهضة المصرية والتأثر بها من غير شك . وقد أنبعثت النهضة

الهندية الجديدة بعد سنة ١٨٥٧ م ، بدأها السير « سيد أحمد خان » بإنشاء « جامعة عليكره » و « ندوة العلماء » ، وتبع ذلك قيام جامعات وجمعيات قوية سارت بالإسلام إلى هذه الوجهة ، فتلاقى شرقه بغربه ، وتعاونت أفكار « شبلى النعماني » و « سيد أمير علي » و « محسن الملك » و « صديق خان » و « محمد علي » و السير « محمد إقبال » ، في جناح الإسلام الشرقي مع أفكار « جمال الدين » و « محمد عبده » و « سعد زغلول » و « رشيد رضا » و « المراغي » و « مصطفى عبد الرزاق » و « السكواكبي » و « الجزائري » و « القاسمي » و « الألوسي » و « رفيع العظم » و « شكيب أرسلان » و « ابن باديس » في جناح الإسلام الغربي ، فكان من آثار هذا التعاون هذه البواكير التي تشاهد في العالم الإسلامي

وقد لفت إشراق هذه الحركة الواسعة أنظار الشبان المسلمين المأخوذين بتوجيه أوربة في البلاد الإسلامية كافة - إلى الإسلام ، وكان فيهم آزرار عنه ، فاجتذبهم إليه ، فألفوه في صورة أخاذة غير الصورة السكائية التي رسمت لهم ، ورأوا من حقائقه ما لم يخالوه فيه من قبل ، وبصروا بدساتير وآداب ومثل تعلو فوق متناول المطاعن والشكوك ، ولم يروا فيه جهوداً كما لقنوا ، وإنما رأوا شباباً متجدداً وحياة نامية ورفقاء وتسامحاً وإخاء ومساواة وعدلاً ، فاجتذبوا إليه ، وأثربوا حبه ، وهاموا فيه ، وأولوه ما يستحق من اهتمام ورعاية ، وتعلقوا بأهدافه . ورأوا في قاداته من قوة الشخصية وسعة العلم وأصالة الرأي وما صاحب ذلك من الحماسة المشبوبة في مناهضة الاحتلال الأجنبي مع صفاء الضمير وخلوص النية ، ما زادهم إعجاباً وإيماناً بالحق الذي يدعون إليه ، ووثقوا أن هذا الذي رسموه من مناهج الإصلاح الديني هو السبيل الموصل إلى المطامح القومية والأمانى الوطنية التي تبيش في صدور المسلمين والعرب ، وتظهر في مناهضتهم للاستعمار ، فاندفعوا فيه ، وأشرعوا أقدامهم في تبيان محاسن الإسلام ، عادين الأمانى الوطنية جزءاً منه لا تنفك عنه

وبهذا انداحت دائرة التجديد الإسلامى وامتدت إلى نواحي شتى وآراب مختلفة . وقد كان « جان جالك روسو » و « الثورة الفرنسية » و « الفكر الأوربى » الأمثلة التى يحتذىها هؤلاء ، فأصبحت عبقرية « محمد » ومثل الثورة الإسلامية وسمو الفكر العربى هى المثل التى يلتمسون فيها الإصلاح والبعث . وكانت القيادة التوجيهية إلى علماء « الأزهر » و « الزيتونة » و « القرويين » و « مسجد دهللى » ، فأصبح خريجو الجامعات الشرقية والغربية شركاءهم فيها . وكان نشاط العلماء الدينيين مقصوراً على أروقة المدارس والمساجد لا يتعدى منطقها المغفلة ، فبسط هؤلاء جناحهم على باحات المجتمع كله ، ومدوه إلى الجمعيات والجامع والأندية والمؤتمرات والصحافة والتأليف والترجمة والنشر ، وكتبوا حقائق الإسلام فى ضوء العلم الحديث بفهم مستقل ووعى عميق ، وواءموا بين الدين والحياة ، وعرضوا نظريات العدالة الاجتماعية والضمان الجماعى والتأميم والمذاهب الاشتراكية والشيوعية والرسمية على حقائق الإسلام ، وقابلوا بينها ، فأثبتوا قدرة الإسلام على مواجهة العضلات بنفسه ، ولم ينسوا مع ذلك أن يتأملوا ويطيلوا التأمل فى حضارة الغرب على أنها وسيلة لا غاية ينتفع من مادياتها بما يمكن للأسلام من الظهور والاستعلاء

كذلك أخذت هذه الحركات بعضها برقاب بعض ، وسلكت سبيل الإصلاح المترقى على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وهى ماضية إلى غاياتها فى قوة وروية لتبلغ نتائجها المؤملة

وقد تجمعت هذه الحركات بعد هذه المراحل فى ثلاث وجهات كبرى تتلخص فيها جميع منازع الإسلام ، أنضجتها الأحداث ، وأبرزها الجهاد الطويل فى سبيل تحرير الفكر الإسلامى من أغلال القرون القديمة وأغلال التقليد للفكر الأوربى ، وتسكوين شخصية مستقلة له يحقق بها حريته وحرية أوطانه

هذه الوجهات هى : وحدة الإسلام ، ووحدة الأديان ، والوحدة الانسانية ؛

تأتى بعضها من وراء بعض ، وتكمل الواحدة الأخرى
وقد تثير ملائسات الأحوال الحاضرة شيئاً من الاستغراب عند قوم ، وقد
تثير شيئاً من الإنكار عند آخرين فى أمر هذه الوجّهات الثلاث فى الإسلام اليوم
ومن حقّ الذين يقفون عند بعض الظواهر دون بعض ، ويهمّلون التأمل فى
سلسلة الحركات الإسلامية منذ قرنين ومناشئها ومناحيها والينابيع التى تروىها وتبعث
فيها الحياة ، وما أصابت من توفيق ملحوظ ونجاح غير منزور . . . أقول : من
حقّ هؤلاء جميعاً أن يستغربوا ذلك ، أو أن ينكروه . ولكن الباحثين المتعمقين
عن يرصدون حركات المجتمع الإسلامى وتطوراتّه ، لا يملكون غير التسليم لهذا
الذى أذهب إليه

ويقرر « ماسينيون » أن هناك ظاهرةً كثيراً ما يهملها الباحثون ، وهى أن
الحركات الإسلامية تستعد فى خفاء وصمت ، وتندلع فجأةً دون أن يسبقها نذير
يمكن أن يرى ، وبعبارة اصطلاحية أكثر دقة - كما يقول - نستطيع تحليل ما يقع
بأن أول الأدوار هو « دور النداء الباطن » الذى يهيب بالضمير الاجتماعى وإن
ظلّ فى حالة هدوء ظاهرى ، أو ظلّ كما يعبر عنه فى عرف طوائف مختلفة فى حالة
قعود أو تقيّة أو كتمان . وإذا فضج هذا النداء ، تبعه الدور الثانى توجّه ، وهو « دور
الدعوة » لآسترداد ما تعطل من حقوق الشريعة ، وسبيل ذلك الجهاد . وهذا
هو المفهوم الذى يصدق على جميع الحركات عند مختلف الجماعات وفى مختلف
الأوقات

ولا جدال فى أن اليقظة الإسلامية الحديثة قد اجتازت « دور النداء الباطن » ،
ودخلت فى « دور الدعوة والتنظيم » فى سلسلة من الحركات قامت فى مختلف
أقطار الإسلام من الساحل الأطلسى إلى أرخبيل الملايو ، وسارت قدماً نحو
وجهتها لا تبالى ما تأخذها به أوربة من سياسات الدس أو البطش أو الإرهاب ،

فتمت نمواً خطير الشأن في بعض الجهات ، ودخلت في طور الأكمال في بعض آخر ، وخصائصها في كل جهة متشابهة ، وآثارها متماثلة : لأنها تنزع عن قوس واحدة ، وترمي نحو هدف واحد ، ولا مفر من أن تتلاقى يوماً ما عند نظام موحد لدولة واحدة . وربما لا يعجب ذلك الدوائر السياسية الأوروبية ، أو القانطين من ساسة الشرق ، أو بعض ذوى الأغراض من أجراء الاستعمار ونحوهم ، ولكن الواقع هو هذا ، لا ما يشتهي هؤلاء .

أما الوجهة إلى الوحدة الإسلامية ، فإنها ترجع بطبيعتها إلى الأصل الأعظم الذي بُنى عليه الإسلام ، وهو عقيدة التوحيد ، وإن شئت قلت وحدة العقيدة . ذلك أن علاقة وحدة العقيدة بوحدة الأمة هي علاقة المسبب بالسبب والنتيجة بالمقدمات ، فعقيدة التوحيد ألهمت العرب فكرة الحرية الشخصية والدينية ، وحررت عقولهم من الوثنيات الموروثة ، وجمعتهم على عقيدة واحدة ترفع النفوس عن الخضوع لـكائن من كان إلا للواحد الديان

ووحدة العقيدة الإسلامية كونت وحدة الأمة الإسلامية ، وحققت للإسلام انظموماً والاعتلاء ، وللمسلمين الاستغلاف في الأرض . وفي تاريخ الصدر الأول ، وتكوين دولة الإسلام ، شواهد ذلك وبيّناته

وافتراق العقيدة من بعد وما نتج عنه من تبدل حالة المسلمين العقلية والنفسية والأخلاقية ، أفسد مقومات الحياة الإسلامية ، ورجع بالمسلمين من الإسلام إلى الجاهلية جهلاً وانقساماً وجوراً وموتاً هم ، وأطمع متوثة الشعوب أن يطفوا عليهم ويستعبدوهم في عقر أوطانهم

وهذا ما جعل جميع الحركات الإسلامية تصرف جهدها إلى هذا الأصل الأعظم وتوطيد بناء المجتمع الحديث عاياه ، فعمدت - ولا تزال - إلى خطة ناجحة في توحيد العقيدة وفي تزيينها ، من أظهر مميزاتنا : تشخيص حقيقة الإسلام

بتطهيره مما ألصقته به الفرق المبتدعة والمذاهب الضالة ، والدعوة إلى الاجتماع على القرآن اجتماعاً تبطل به هذه المذاهب قديمها وحديثها جملة ، وتتوحد العقيدة والأخلاق وجميع نظم الحياة ، وتعلو الأخوة الإسلامية ، وتكون حدود الإسلام هي وطن المسلمين ، إنما المؤمنون إخوة والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ، وما وسَّعَ السلف الصالح وكان مبعث عزهم وعلوهم ، بسمع المسلمين في كل مكان وزمان ، ويكون مصدراً لاستمادة ما أضاعوه من المجد والسلطان

وقد آتت هذه الدعوة أكلها للطيب ، فزالت تلك الحدة التي اتسم بها أهل المذاهب الإسلامية القدماء ، وضعف الشعور بما كانوا يحسونه من الفوارق من قبل ، وظهرت في المجتمعات الإسلامية طلائع قوية للتسامح والتعاون على الخير في شؤون الحياة ، وخاصة في منازع الوطنية والاستقلال ، مع ما ينفضه الاستعمار من سمومه لتفريق الصفوف على يد أجراءه ووكلائه ، وبدا واضحاً من أثرها في توجيه جبهة المسلمين في كل مكان نحو التكتل وجعل الإسلام الصحيح أساساً للمجتمع الحديث ، أن حركة الوحدة الإسلامية قد أصبحت من أهم الحركات في العالم الإسلامي اليوم

ولا يضعف من أمرها أفراد مبعثرون هنا وهناك يقفون على طرفيها ولا يندمجون فيها . وهؤلاء هم كَمَطَان من الناس : بعض عناصر الطبقة المترفة ونحوها ممن أمرتهم الشهوات وعبدوا المادة وفترت عزائمهم في دينهم وأهملوا أوامرهم ونواهيهم ، وعناصر أخرى جاهلة كل الجهل يسمون أنفسهم مسلمين ولكنهم قد حيل بينهم وبين الإسلام الصحيح ولا يخرج دينهم عن مجموعة من الخرافات الساذجة وأباطيل الوثنية . ومثل أولئك وهؤلاء في خضم يموج بنخسمائة مليون نسمة لا يُعتدُّ بهم في الوزن الصحيح للقضايا الكبرى

أما الحركات الوطنية المحلية ، التي تسمى قومية أحياناً ، فهي شعور وطني

محض أرهف من حده الاستعمار السيامى والاقتصادى يتجه إلى إعادة تنظيم الجماعات ويستنفر القوى السكامة لمقاومته والتخلص من جبروته . فهى بسبيل من وجهة الإسلام فى هذا الشأن ، وليست عصبية بين الشعوب الإسلامية ، ولا هى كعقيدة الجنس النظرية التى قامت عليها حياة أوربة إلى عهد قريب

والمعروف من تاريخها وخصائصها أنها حركات تتضافر مع الإسلام فى وجه الاستعمار ، فى كل مكان ، وهى وحدات ، نعم وحدات أحدثها عدوان الدول الأوربية على العالم الإسلامى وأقتطاع كل دولة جزءاً منه تتحكم فيه ، لا أنها هى كذلك أو تريد أن تكون كذلك . وهى كلها تكافح هذه الدول الباغية لتتحرر من سلطانها ، ووجهتها جميعاً إلى الوحدة الكبرى الشاملة من غير شك ولا جدال

والراقبون الأوربيون يعترفون بأن شعور المسلمين بالوحدة سلاح يذافعون به عن أنفسهم ، وإن يندوه مستخفين به ، لأنه يسبغ القوة على هذه الوحدات المتفرقة ، ويلاحظون أن النزعات المنتشرة تسير بقوة فى سبيل الاحتفاظ بأساس إسلامى للقوميات الجديدة ، وأن السعى لتقويتها هو من أهم الحركات فى العالم الإسلامى اليوم

• ويقرر « جب » أن ثورة المسلمين على مبادئ الحضارة الأوربية التى تعارض الأخلاق ستدفع المثقفين منهم حتماً إلى أن يزدادوا إصراراً على الدعوة إلى الأخلاق السامية ، وأن يصروا على أصل الإخاء الإنسانى الذى هو أساس الأخلاق الاجتماعية فى الإسلام

وان النزعة الإسلامية آخذة فى القوة على أسس أخلاقية ، ولا سيما مع تزايد النفوذ السياسى للطبقة الوسطى التى أثرت فيها على الدوام تعاليم الإسلام الخلقية . وكما زادت روح الديمقراطية فى القوميات المقبلة ، زاد سلطان أصول الإسلام على العلاقات السياسية

ويقول : « إن عاطفة الوحدة آتدك دلالة محسوسة على وجودها بطريقة مطردة رائعة ، فلا تمر حادثة تمس حياة العالم الإسلامى من غير تعليق حماسى حاد فى صحافة تذيع فى نصف آسية وإفريقية . وحين تأخذ هذه الحوادث شكلا خطيرا سواء فى سراکش أو ليبيا أو فلسطين أو الهند أو أندونيسيا تأتى قرارات الاحتجاج من كل فج وكلها متشابهة فى اللهجة بل فى العبارة . وليس عهدنا بعيدا بالجزء الأكبر من العالم الإسلامى حينما كان يخيل لمن يراه أنه فى سبات عميق ، حتى حسبه بعضنا قد فقد الحياة . فأما اليوم فإن حادثة صغيرة مثل قتل الشهيد عمر المختار تهز ما بين سراکش وجاوة ، وكأنها صدمة كهربية ، وتولد تيارا من السخط الملتهم . حقا ، إن ذلك الشعور المتولد يخدم سر يعا ، ولكن تراكم أثر تلك الصدمات سيجعل رد الفعل أكثر قوة ، وسيزيد العالم الإسلامى شعورا بوجوده »

وأقول : إن هذا الشعور قد بلغ من نفوس الشعوب الإسلامية غايته ، فهم يشعرون أنه ليست هنالك شعوب إسلامية ، ولكن أمة إسلامية ، وطنها حدود الإسلام

وبهذا الشعور بدأت الحكومات الإسلامية تحمل ما عسى أن يحدث بينها من وجوه الخلاف . ولا نحسب أن أمة من هذه الأمم الأوربية تنازعت وأمة أخرى أمرا بينهما ، ثم استطاعت أن تنزل عن أحقادها وتراثها ، أو تحسم نزاعها بزيارة يقوم بها ملكها لتلك الدولة أو يقوم بها وفد أهلى لا صيغة رسمية له ، كالذى يستطيعه ملوك المسلمين ووفودهم فى هذا العصر حين يقع بين دول الإسلام الحاضرة شىء من الخلاف كما يقع فى العادة بين الأخ وأخيه . ولست أذكر ناسيا حين أذكر كيف ضرب الملك « فيصل » المثل بنزوله عن تراثه عند الملك « عبد العزيز السعود » فذهب إليه بصاحفه وبشاوره فيما فيه خير العرب والمسلمين ، وكيف زار إمبراطور إيران لحسم بزيارته النزاع الذى نشب بين العراق وحكومته

على بعض الحدود ، أو كيف أستطاع وفد أهلى أن يحسم النزاع بين اليمن والمملكة العربية السعودية فيرجع الجيش السعودى عن « صنعاء » بعد ما طرقت أبوابها بتدكيره لمتخاصمين بالأخوة الإسلامية وحقوقها فى رقاب المسلمين

وهذه الوجهة إلى الوحدة الإسلامية التى تظهر اليوم عند المسلمين هذا الظهور القوى من إدراكهم التام لحقيقة الموقف الذى وُضِعُوا فيه ، تصحبها فى المجتمع الإسلامى فى الوقت نفسه ظاهرة رائعة من وجهة الإسلام إلى توثيق الصلة بينه وبين الأديان الأخرى . وهى وجهة قديمة معروفة من أصول الشريعة وسيرة رسول الإسلام والتاريخ الإسلامى ، يحسن بنا أن نقف عندها وقفة قصيرة ، ثم نعرض لما عراها من بعد ، ثم كيف عادت إلى الظهور فى هذا العصر ، لتكون مناشئها بيئة ، وثلاثي محسبها المتأثرون بالسياسات التى غرستها يد أوربة فى الشرق « مفارقة » لا تتسجم مع الاندفاع إلى الوحدة الإسلامية

فمن المعلوم بالضرورة من الدين أن الإسلام إنما هو دعوة إلى الإيمان بالله الواحد الخالق ، ورسالة مكلفة للشرائع السابقة ومعبدة للحنيفية الفطرية التى تستند إلى وحدة الله ، وتترتب عليها وحدة خلقه . يقول القرآن : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ ، ويقول : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ . ولم يختلف الرسول ﷺ ، مع أهل الكتاب إلا حيث كان تنزيه الخالق موضع شك ، وقد كان كثير التسامح معهم رفيع الأدب فى مجادلهم ، يقول القرآن : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ، ويقول فى النصارى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيسِينَ وَرَهَبَانًا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، ويقول فى الملل الكتابية : ﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وعمل صالحاً ، فلمهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون .
وبالإيمان بالله وحده لا شريك له تتساوى عنده القبائل والشعوب والأديان
والرسل ، لقوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

وسيرة رسول الإسلام مع أهل الأديان جميعاً ، سيرة كلّها رفيق وإحسان
وعدل ، لأن دينه لا ينظر إلى غيره من الأديان إلا هذه النظرة الجامعة . وقد وضع
أساساً صالحاً عادلاً يحدد موقفه من أهلها جميعاً ، فقال : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ
فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ ، فما حاد عن هذا الأساس . وكان من بينات عطفه أن أصهر
إلى النصراني ، فتزوج من قبطية أسماها « مارية » كانت أم المؤمنين وأم ولده
« إبراهيم » ، كما تزوج من « صفية » وهي يهودية ، ولم تفقه فرصة دون أن يوصى
بأهل الكتاب خيراً

وفتح المسلمون البلاد التي كانوا يقطنونها فما أطاحوا بمقوق أحد منهم ، وكان
من أصول السياسة الإسلامية المساواة المطلقة بين المسلم وغير المسلم حتى في بيت مال
المسلمين ، فهو ليس بمقصود على معاونة المسلم وحده ، بل يُشرك فيه غير المسلم بلا
قيود ولا شرط . وفي قصاص « عمر بن الخطاب » من أبته لأجل حق أمهارة
مسيحية قبطية ، أكبر الشواهد على العدالة الإسلامية ، وفي قوله : « متى استعبدتم
الناس وقد ولدتمهم أمهاتهم أحراراً » ؟ كل مقاصد الإسلام من الحرية والإخاء
والمساواة

ويعترف السير « توماس آرنولد » في كتابه « انتشار الإسلام » بأن
« الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم ، وأن جميع المذاهب
المسيحية كانت تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء ، بل

هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض ، ويكفلون الحرية الدينية للجميع » ، ويقول : « تحت نظام من الأمن يكفل حرية الحياة والملك والعقيدة الدينية ، تمتع المسيحيون - ولا سيما في المدن - بثروات ونجاح كبير في عصور الإسلام الأولى ، فكان منهم أرباب النفوذ الواسع في قصور الخلفاء »

ومن المؤسف حقاً أن قابلت أوربة هذه السماحة بالسماحة ، وحملت سياساتها « الميكيفيلية » في عهودها الطوال منذ العصور القديمة إلى هذا العصر على ارتكاب موبقات وفظائع ومذابح لا حصر لها لم تعرفها وحوش الغاب ، وعبثت بوحدة الشرق باسم حماية الامتيازات وحقوق الأقليات ، وأجرت من دماء المسلمين وغير المسلمين أنهاراً ، حتى أصبحت نياتها للجميع عن الاستعباد والاستعمار ، فأنجحت الغشاوات عن الأبصار ، وأدركت الأقليات من الحقيقة ما أدركته الأكتربة

لذلك كان على الإسلام في غمرة صراعه للاستعمار أن يصريح عن محضه ، ويكشف عن وجهته ونيته غير متملق ولا مداهن . فوضع أمام الأعين البصرة والقلوب الواعية كتابه الصادق ، وتاريخه الناطق ، وشعوره السليم . فصدقته غير مترددة ولا متشككة تصديقاً لا يتطرق الشك إلى عاطفته الخالصة النزينة ، وأجابته على تسامحه وإخلاصه فأيدت قاعدة أعراف الدولة بالإسلام ديناً رسمياً في مصر وسورية والعراق ، وظهرت رايات المتظاهرين في الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وقد نسجت خيوطها أهلة وصلباناً ، وهال « مدام جهان دي فراي Madame Jehan d'Ivray » أن شهدت قسيسين أقباطاً يعظون في المساجد ، وعلماء من شيوخ المسلمين يعظون في الكنائس طالبة من السوريين والموارنة والمسلمين ، وسيدات مصربات وتركيات جميعاً على وئام وثيق واتحاد مكين في سبيل القضية الوطنية ، وقالت : انها قد أصبحت تشهد من ذلك الجائب والغرائب في هذه الديار

وقوى هذا التعاون في أوطان الهلال الخصيب ، وخاصة في فلسطين ، حيث ظهرت الصهيونية تريد الاستيلاء على المسلمين والمسيحيين الشرقيين معاً ، ويلاحظ « ج . كينغيار » أن تجاوب المشاعر بين المسلمين والمسيحيين والشرقيين كلاً من الشعور الإسلامي والمسيحي يؤثر في تطور الآخر تأثيراً خفياً ، ولكنه قوى . وقد دهش « الأب ف . ت . بنارت » للعلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين في العراق ، وأعجبه غاية الإعجاب ، وهو يتحدث عن المنشآت الإسلامية الحديثة التي تقص الصحف أمرها ، أن رأى المسلمين اليوم في العراق يحذون حذو المصريين ويؤسسون بمساعي بعض العلماء هذه الجمعيات الإسلامية في حماسة من غير أن تمس المسيحيين بكلمة جفاء واحدة

ونحن نرى في الجانب المسيحي الأدباء المسيحيين العرب يمازجون بين عواطف الإسلام والعروبة ، ويهذبون بأدبهم المشاعر ، ويعملون على تقريب الوجهات كما يعمل عليها المسلمون ، ولهم الآيات البينات في التقنى بمحاسن الحضارة الإسلامية ، ومنهم من فنى في حب محمد رسول الإسلام ، مثل « مارون عبود » الذي أبت عروبة إلا أن يتيمن فيسمى ابنه باسم بانيها الأول ، و « لبيب الرياشي » الذي وصف فضائل محمد بما لم ينهض بمثله كثير من المسلمين ، وأمثال شبلى ولاط والياس فاعور ونجيب نصار وجورج سلسي وغيرهم ، وكلهم أشاد في شعره ونثره بمحمد ، وأستعذب لغة القرآن

ولست أدري ماذا بقي بين هذه النفسية المنصفة للصافية وبين الإسلام ؟ ومن المسلمين من فتنهم أوربة عن دينهم ، فالتزموا فروضه وأوامره ، ولا ظفر منهم محمد ولا العروبة ولا حضارة الإسلام بكلمة إطراء مع تمييزهم على نظرائهم بالبيان كذلك التقى الإسلام بالمسيحية في هذا العصر ، وأعادت مواقف أحدهما من الآخر إلى الأذهان مواقف العرب المسيحيين في عهد الفتوحات الأولى ، وقتالهم

في الصفوف الإسلامية انتصاراً لعروبتهم في مثل « واقعة الجسر » و « واقعة البويب » ؛ وعاد الطابع القديم الذي طبع به الإسلام الشعوب على التعاطف والتراحم والموادات كأحسن ما تطمع به الآمال

ونحن نعتقد أن هذه اللطائف من تصفية العقول وتزكية الضمائر والرغبة الصادقة في التقاء وجهات النظر عند أصول الأديان جميعاً ، وهي الإيمان بالله وحده لا شريك له ، ستثقل الناس حتماً - كلما ازدادوا وعياً وإدراكاً لأثر هذا الأصل في الحياة البشرية - إلى الأفق الرحب الذي يليق بالإنسانية أن تثقل بفطرتها إليه ، ألا وهو الإخاء الإنساني العام

فلا مصرية في أن بنیان المدنية الإنسانية الحق إنما يقوم على هذين العمودين :
الإيمان بالله ، والأخوة الإنسانية الجامعة في عالم واحد

والمتمثل في الإسلام ، يجده حربصاً عليهما أشد الحرص . فهو قد دعا إلى التوحيد الخالص ، وبالغ في الدعوة إليه والتوكيد عليه كما بالغ في احترام رسالات الله التي دعت الإنسانية إلى هذا التوحيد ، ليكون الإيمان بالله واحداً في حقيقةه ومظهره ، ثم عطف على الروابط الإنسانية فركزها في أساس واحد ، هو بديهي جداً وغامض جداً في وقت واحد ، هو غامض لأن الناس أبتعدوا عنه كثيراً ، ولأنه يغيب عن الأذهان في غمرة هذا الصراع والتكالب بنوازع الجهل والعصبية ، وهو بديهي لأنه قريب من نفس كل إنسان لو فكر الإنسان في نفسه وانسأخ من نوازع الشريرة لحظة واحدة ، وهو بديهي فالناس جميعاً من نفس واحدة ، وأنهم لذلك أسرة متشابكة الأجزاء متكافلة الأعضاء وليس بينهم إلا قرابة تحترم ، ورحم توصل . . . ولإبقاء هذا الأصل سليماً أيضاً أمر الإسلام بالتقاء الله فيه بالاحترام والتواصل والتعاون والمحبة ، لينتهوا جميعاً إلى عالم واحد لا يستعمل فيه قوى على ضئيف كما نشؤوا من نفس واحدة ، وليعيشوا سعداء بالرحمة والحنان

والحب ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

على هذا النحو أو على هذا الأساس صاغ الإسلام مدينته ، وحقق جمع الأجناس وتفاهمها وتعاونها . وله في ذلك ماضٍ مجيد مشهور . ويعترف رجال الدراسات الإسلامية من الأوروبيين بأنه « لا توجد مدنية أخرى سُجل لها من النجاح في أن تجمع كثيراً من أجناس الإنسان المختلفة مع التسوية بينهم في المسكن والعمل وتهيئة الفرص - كما سُجل للإسلام »

ويلاحظون « أن الجماعات الإسلامية العظيمة في إفريقيا والهند واندونيسيا ، والجماعات الصغيرة في الصين ، والجماعات الصغرى في اليابان : كلها تبين أن الإسلام لا تزال له القوة على أن يتألف العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها بسبب الجنس والثقاليد » ، ويرون أنه إذا لم يكن بد من أن يحل التعاون محل الشقاق بين المجتمعات العظيمة في الشرق والغرب ، فإن وساطة الإسلام شرط لا بد منه ؛ لأن في يده إلى حد كبير حلّ المعضلة التي تواجه أوربة في علاقاتها مع الشرق ، وإذا أخذنا زاد الأمل زيادة لا حد لها في بلوغ نتيجة سليمة »

على هذا النحو صاغ الإسلام المدنية الإنسانية ، وعلى هذا النحو يعنى مفسكروه في هذا العصر بإظهار وجهته الكبرى إليها ، لا بالون في عرض حقائقها وبيان مناهجها والموازنة بين الأصول التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية والأصول التي تقوم عليها حضارة الغرب ، لينقلوها من التراث العتلى المجرد إلى الميدان العلمى الواقعى ، ولينقذوا هذه الإنسانية المذبذبة التي تضطرب أحشائها بالرعب ، وتضطرم قلوبها بالأحقاد الآكلة ، ويُبعد بعضها البعض أظفَع ما يسمو إليه الخيال المجنح من صور أدوات التدمير والإفناء ، حتى أصبح السلام حلمًا لا سبيل إلى تحقيقه ، وأمنية معسولة ولكنها برق خُلّب وصرا ب كُذوب

والواقع أن الأساس الذي تقوم عليه حضارة الغرب لا يمكن أن يُسلم إلى غير هذه النتائج ، وستظل الإنسانية تعاني أزماتها الحاضرة ما دام هذا الأساس هو الذي يتصرف بالعقول والنفوس ، ويخلق فيها الظلم القاتل إلى المال ، ويهيج التنافس والنضال للحصول عليه ، مسقطاً للمعاني الإنسانية السامية والمثل الخلقية السكرية ، مثل الإيثار والمحبة والأخوة ، فلا يكاد يمسكها ، ولا تسكاد تملق به

ومن هنا كان في أوربة هذا التناحر الذي لم تعرف الإنسانية في عصورها الطوال أوحش ولا أضرى ولا أفتك منه ، حتى عمّ بلاؤه الأرض كلها ، لم يسلم منه القابعون في قلال هملايا ولا المنزلون في سهوب إفريقية

يصف الأستاذ « جود » الفيلسوف البريطاني المعاصر في كتاب له تطيره مما أنزلت إليه أوربة ، فيقول : « إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقول الأطفال والوحوش » ، ويقول : « إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة وطفواننا الاجتماعية الخبيثة ، نواجهه عند كل منعطف ومنعرج ، نحن نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار ، ونرسل الصور بالبرق ، وننصب اللاسلكي في بيوتنا ، ونسمع في سيلان ذقات (Big Ben) الساعة العظمى تضرب في لندن ، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتها ، والأطفال يتحدثون على الأسلاك البرقية ، وآلات الكتابة صامتة ، وتملأ الأسنان من غير إيجاع ، والزروع تنمي بالكهرباء ، والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة رونتجن (X-rays) نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصور المتحركة تتكلم وتغنى ، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والغواصات تذهب إلى القطب الشمالي ، والطائرات تطير إلى القطب الجنوبي . ومع ذلك كله لا نقدر في وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء في راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين ، ونجرح منهم تسعين ألفاً سنوياً » . قال : وقال لي فيلسوف هندي في انتقاده اللاذع لإطرائى لعجائب حضارتنا - وكان بعض سواق

السيارات قد نجح في قطع ثلاثمائة ميل أو أربعمائة في ساعة على رمال Pendine ،
وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في عشرين أو خمسين ساعة (لا أذكر) -
« نعم ، إنكم تقدرون أن تطيروا في الهواء كالطيور ، وتسبحوا في الماء كالسمك ،
ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض » !

والإسلام حين ينظر إلى الغرب فيجد فيه هذا التفاوت العظيم بين أرتقائه
المادى هذا الأرتقاء الذى لا مطنح وراءه ، وبين انحطاطه فى الجانب الروحى هذا
الانحطاط الذى جعله يستعمل قواه بمقول الأطفال والوحوش كما يقول الفلاسوف
البريطانى ، ولم يعلمه كيف يمشى على الأرض كما يقول الفلاسوف الهندى . . . يأمرى
غاية الأسى على المصير الذى يوجه الغرب العالم كله إليه ، ويتوجع كل التوجع
أن يراه وهو يقطع أرحامه كما يقطع رحم الإنسانية فى كل مكان ، ولا تبالي دوله
الكبرى - فى سبيل نفسها وحدها - أن تنفق فتطرد العرب الفلسطينين الأبرار
من مواطن أجدادهم وآبائهم باليهود الأشرار الذين يمدونها بالمال إعانة لها على
إنتاج آلات التدمير والحرب ، أو أن تزيل أمة من الوجود بقذيفة واحدة ينطلق
منها مايون عزرائيل يتخطفون فى لحظة أرواح ملايين من الشيوخ العجاف
والأناس اللطاف والأطفال الملائكة الأبرار ، فلا تبقى على بناء مشيد ولا زرع
قائم ولا حيوان من هذا الحيوان الأعجم الذى يؤسس الغربيون جمعيات الرفق به
من أذى الإنسان !

والإسلام بين توجهه وأساه ، يتحرك ويتحفز ، وبه من الغرب أغلال ،
ليحطمها ، ولكن لا تحطيم من يريد أن يثار وينتقم ، لأن العفو عنده أساس
معاملاته ، وهو أقرب للتعوى ، بل تحطيم من يغار على كرامته أن تذال ، وعزته
أن تذلل ، ويظن أن تخدر وتنوّم وتبعد عن واقع الحياة ، وقدرته أن تكبل
وتحد بنوازع الأثرة والطفيمان . . . ليهود مرة ثانية ، فيصوغ إرادته بنشر روح

الإخوة الإنسانية في عالم واحد ، دعائمه نظام روجي يكون أساساً للنظام التهذيبي
وأساساً لقواعد الخلق والعمل ، لا يضحى فيه بشيء من أصول الأخلاق في سبيل
التنظيم الاقتصادي ومعاملة الأفراد والجماعات

ويومئذ نسخر هذه المصنوعات الجداد للخير وحده وللشركاء ، بعقول الحكماء
والإنسانيين لا بعقول الأطفال والوحوش ، وتتعلم أوربة حين تطير في السماء كيف
تمشي على الأرض ، ثم تسير ويسير ركب الإنسانية إلى سعادته المنشودة في وئام ،
وينعم الشرق والغرب جميعاً بنعمة السلام ، ويكون الدين كله لله

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المطبعة السلخنة

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رقع
عبد الرحمن النجدي
أبو بكر النجدي